المقال . ولكني اقول بالاختصار انهُ ينبغي ابعادها عنا وابعادنا عنها ومنع ادخالها بيننا وخصوصاً ابعادها عن الاطفال باي طريقة كانت حفظاً للصحة ووقاية من الامراض والاسقام فليحذر منها كل عاقل شرًّا واي شر . وقانا الله واياكم من الشرور ووفقنا جميعاً الى ما فيهِ حفظ صحة العباد

مشاهد اوربا

١

من الاسكندرية الى برندزي

ودَّعنا الاسكندريَّة والشمس في الاصيل وقد سال تبرها على لازورد الماء فرصعهُ بالزبرجد . ونسجت الريح عليهِ بردًا تطويهِ وتنشرهُ فيلوح ما فيهِ من اللؤلؤ المنضَّد . وتخرت بنا سفينة الحريَّة تشق عباب بحر الروم كأنها جبلٌ دحر في الفضاء فلم نكد نشعر بمقاومة الماء . وسرنا على هذا النمط في طريق القدماء اليونان والرومان ساعاتٍ متواليات لا نرى الاَّ سماء وماء . وقد ادهشتني زرقة الماء وهيج اشجاني عليل النسيم فجاش الشعر في صدري وقلت مخاطباً هذا البحر الخضم الذي شهد قيام اعظم ممالك الارض واندثارها

بحرَ الكنوزِ ومحتدَ العمرانِ ... مهدَ الهموم ومدفنَ الاحزانِ
نشأت حواليكَ الممالك وارتقت ... ثم انطوت كاليت في الاكفانِ
مصرٌ وفينيقيَّةٌ مع مدنٍ قر ... طاجنةٍ والروم واليونانِ
اين الجواري اللائي انشأها بنو ... صورٍ وصيدا غايةَ الازمانِ
اين الاساطيل التي قلَّت جمو ... عَ الفرس والسريان والكلدانِ
اين البوارج والحراريق التي ... دانت بها قرطاجُ للرومانِ
اين استوت سفن البطالسة الأُلى ... لم يكتفوا بالنيل ذي الفيضانِ
بل اين اسطول القياصرة الذي ... سادوا بهِ في معظم البلدانِ
وبوارج الاعراب والافرنج في ... حرب الصليب وما بنى الفلانِ
لم تُبقِ من آثارها رسمًا لها ... وكذا مصيرُ صنائع الانسانِ

يا طالما خانت بلجك فكرتي قبل اختباري الهجر للاوطانِ
منذ الفطام وانت قبلة ناظري فاذا وصفتك حار فيك لساني
قد كنت مصدر ثروة الشام الذي اخنت عليهِ طوارق الحدثانِ
وثغور مصر من نداكِ تنظمت فيها عقود الدرّ والمرجانِ
وتوسّدت اسكندريّة منزلاً تاهت بهِ فخرًا على الافرانِ
لكنما غيّر الزمان تناوبت فقضت على الآثار كالاعيانِ
لولا العزيز وآلهُ الكرماء لم تبصرْ بمصرٍ غير عظمِ فانِ
أحيوا نفوس بني البلاد بعدلهم وبما حبوها من عظيم الشانِ
وترى بارض الشام كلّ اخي علًى وحميّةٍ يدعو بكل لسانِ
يا آل بيروتٍ وصيداء انفضوا عنكم غبار الذلّ والنسيانِ
واسعوا بني صورٍ وعكا تنجحوا فالنجح للساعي قريبٌ دانِ
وتناصروا وامامكم سيفي سعيكم سلطانكم عبد الحميد الثاني

والسفينة التي سرنا فيها ايطاليّة اسمها المستقلة او الحريّة وهي من اكبر السفن التجاريّة التي تمخر بحر الروم طولها مئة متر وثمانية امتار وعرضها اثنا عشر مترًا وتحملها ٣٥٠٠ طن منارة كلها بالنور الكهربائي وفيها مصابيح أُخرى غير المصابيح الكهربائيّة ولكنها لا تستعمل الاّ اذا تخرّبت الآلة الكهربائيّة او بطل عملها لسببٍ من الاسباب . وقد بنيت هذه السفينة منذ ثماني سنوات لا غير . وآلتها البخارية تتحرّك بقوة ٣٢٠ فرسًا فلو استعاض اصحابها عن البخار برجال يسوقونها بالمجاذيف كما كان يفعل الفينيقيون واليونان والرومان لاضطروا ان يضعوا فيها خمسمئة رجل يتراوحون التجذيف نهارًا وليلاً ولامتلأ الجانب الاكبر من السفينة بهم وبؤونتهم

وقد وقفتُ امام آلتها البخاريّة انظر اليها واعجب من اتقانها واحكامها فرأيت فوقها كتابة انكليزية مؤدّاها ان السفينة بنيت في مدينة غلاسكو احدى مدائن الانكليز . ومعلوم ان ايطاليا فاقت ممالك الارض في بناء السفن من قديم الزمان وكانت الامثال تضرب بقوة اسطولها وهو مبني في مرافئها من اشجارها ومعادنها فباي حكم من احكام الزمان صاروا يبنون سفائنهم في غير بلادهم . هل ضاعت وطنيتهم او هل ضاعت هذه الصناعة منهم او هل بلغ منهم الكرم انهم صاروا يجودون باموالهم على صناع الاجانب

اما الغيرة الوطنيّة فلا ينكرها احد على الايطاليين وهم قد جادوا بارواحهم في حب

وطنهم واعلاء كلمته وذلك ليس من عهد بعيد نسيهُ الاحياء بل من عهدٍ حديث يذكرهُ الكهول والفتيان. وهم في الصناعة من اصبر الناس قاطبةً ولاسيما في صناعة البناء والنقش وانشاء الآلات. ولم نسمع ولا سمع احد غيرنا ان الايطاليين شغفوا بحب الاجانب حتى صاروا يجودون عليهم بالمال ويتركون صناعهم يتضورون جوعاً

وقد خطر لي حينئذٍ ان السفينة بنيت في ايطاليا ولكن آلتها البخاريَّة صنعت في بلاد الانكليز فسألت الربان عن ذلك فقال لا بل ان السفينة كلها قد صنعت في بلاد الانكليز. ولما رآني متعجباً من ذلك قال هي التجارة لا تعرف الاَّ الربح فلو رأت شركة روباتينو صاحبة هذه السفينة انهُ يمكن بناؤها في ايطاليا بمثل المال الذي بنيت بهِ في غلاسكو لبنتها في ايطاليا حتماً ولكنها رأت ان نفقة بنائها في غلاسكو اقل فاختارتها على غيرها . ونحن نخاطر بارواحنا كما ترى لكسب المال وهو قوام حياتنا وحياة عيالنا فهل نبذرهُ تبذيرًا لكي يقال انا من محبي الوطن واذا كانت الطبيعة قد حرمتنا من مزايا خصت بهِ غيرنا وخصتنا بمزايا اخرى فعلى مَ نحاول مباراة غيرنا في ما خص بهِ ونترك اتقان ما خصصنا بهِ من المزايا الطبيعيَّة . او لا تعلم ان ناموس تقسيم الاعمال يقضي على كل شعب بل على كل بلد بل على كل شخص ان يقتصر على الاعمال التي ينجح في اتقانها اكثر من غيرها وهذا هو سرُّ ارتقاء الممالك الاوربيَّة

ولما قال هذا تذكرت عبارة وجيزة اللفظ كثيرة المعنى قالها احد تجار مصر لاحد وزرائها. ذلك ان الوزير ابدى اسفهُ لان التجار لم يشتروا المعمل الذي باعتهُ الدائرة الخاصة فقال لهُ التاجر "لو وجدنا فيهِ ربحاً لاشتريناهُ "

هذا ومعلوم ان اهل التجارة يزنون كل شيء بميزان الدنانير فاذا اقتصرت البلاد على ما يطلبون ضعف شأنها واضاعت عزها الذي يعتمد عليهِ اهل التجارة في رواج متاجرهم فلا بدَّ من ان يبذلوا شيئاً من مصالحهم ومكاسبهم لاحياء صناعة بلادهم وتوفير خيراتها لتكثر ثروتها ويعلو شأنها وهم في ذلك غير مبذرين بل مدبرون لان الدرهم الذي ينفقونهُ اليوم يربحهُ ابناؤهم دينارًا وشأنهم في ذلك شأن الرجل الحكيم الذي يغرس اغراساً تمضي عليها سنون كثيرة قبل ان يجتني منها ثمراً فانها تكون ذخرًا لاولادهِ ولو لم ينتفع هو بها

وواصلنا السير الى ان لاحت لنا جزيرة كريد وجبالها الممتدة في طول البحر وهي كجبال لبنان تناطح السحاب فشاقني منظرها وشاق الصحاب . ومررنا في صباح اليوم الثالث

امام بلاد اليونان وشاهدنا الثلج على قنن جبالها ورأينا جزيرة زنتي التي خرّبت الزلازل بيوتها منذ عهد قريب وهي بديعة المنظر سطحها مغطًّى بالخضرة كانها بستان واحد وتدل هيئة آكامها على انها كانت كؤوساً بركانيَّة ولم يظهر لنا فعل الزلازل الحديثة بها ولكنَّ جهتها الغربيَّة مقطوعة قطعاً يكاد يكون عموديًّا دلالة على انها ارتفعت في غابر الزمان دفعة واحدةً او قدَّ جانب منها قدًّا وغاص في البحر والامران يدلان على ان القوى البركانيَّة شديدة الفعل في هذا المكان

وكان الركاب في السفينة زهاء ستين نفساً من امم مختلفة بين ايطاليين وفرنسويين والمانيين وبلجيكيين وانكليز واميركيين وهم من نزلاء مصر الذين يغادرونها في فصل الصيف هرباً من حرها وليس في السفينة غيرنا من الشرقيين لانها لا تسير الاَّ بين الاسكندريَّة والبندقيَّة (فينيسيا) . وترامى على جاري عادة الاوربيين يقضون ساعات الفراغ في القراءة والكتابة ولكن اكثر ما يطالعونهُ قصص يقتلون الوقت بقراءتها فهي من قبيل التفكه بالملاهي لا من قبيل طلب الفائدة . وقد سألت واحدًا منهم عن عدد ما قرأهُ من هذه القصص فقال انهُ كثير لا يدخل تحت حصر فانهُ قلما يمضي اسبوع لا يطالع فيهِ قصة جديدة. فقلتُ وهل تذكر شيئاً مما قرأتهُ فنظر اليَّ كانهُ يراجع مكنونات ذهنهِ فوجدهُ فارغاً كفؤاد ام موسى . ثم قال كلاَّ فقلتُ كذا ظننتُ لان كثرة التنقل في المواضيع وسرعة المطالعة بغير تروٍّ وحفظٍ تشوش الصور الذهنيَّة وتجعلها سريعة الزوال فلو قرأ الواحد منكم كتاباً واحدًا واعاد درسهُ مرارًا لحفظ ما فيهِ من الحقائق والفوائد واغناهُ ذلك عن كثرة المطالعة على غير جدوى . قال ولكننا قد الفنا هذه الخطة ولا سبيل لنا الى تركها لانها صارت ملكةً فينا فقلتُ في نفسي عسى ان نتعظ بمثال غيرنا فنعلم ابناءنا ان يمعنوا نظرهم في ما يطالعونهُ ويكرروهُ بالدرس حتى يرسخ في اذهانهم وان لا نبيح لهم من القصص والروايات الاَّ ما يكون في قراءتهِ فائدة حقيقيَّة لتهذيب اخلاقهم وتوسيع مداركهم

ورأيت بين المسافرين اناساً حادثوني في شأن القطر المصري وهم مجمعون على ما طالما جاهرنا بهِ من ارتقاء الديار المصريَّة ولكنهم يحسبون ان هذا الارتقاء لا يكون حقيقيًّا ما لم يعمَّ الامة نفسها فلا تستفيد البلاد اذا وجدت عند حكومتها مصلحة تدير سكك الحديد مثلاً ما دامت الامة نفسها لا يتسنى لها ادارة هذه السكك وقس على ذلك بقية المصالح . فاثبتُّ لهم انهم مصيبون في ذلك وان الامة قد شرعت في انشاء الشركات

وادارة الاعمال ولم تفعل ذلك من قبل لفساد الاحكام السابقة وعدم انتشار التعليم . وستعود جميع المعامل التي انشأها الشهير محمد علي باشا وتحيا حياة دائمة اذ تكون للامة لا للحكومة . وبمثل هذه الاحاديث مضت ساعات السفر ومنعنا السآمة والضجر

٣

من برندزي الى انكونا

البحر ملك عنيد اذا صافاك صافاك طويلاً واذا جافاك فاحذر بطشهُ وقد صافانا هذه المرة على غير المعتاد لاننا في الانقلاب الصيفي حين تنزل الانواء وتثور العواصف . فسارت بنا الباخرة باسم الله مجراها الى ان دخلت مرفأ برندزي الذي كان يعرف قديمًا برأس الوعل لخروج شعبتين منهُ كالقرنين يحيطان بهِ فيصير من آمن المرافىء ولذلك اختارتهُ السفن البخاريَّة مرسى لها . فرأيناها منظومة حول رصيفهِ كالعقد في عنق الغيداء وسارت باخرتنا الى ان حاذت الرصيف المخصص بشركة روباتينو وكادت تلثمهُ . ولم يكن في المرفإ باخرة اكبر منها الاَّ باخرة انكليزيَّة تزيدها نحو اربعين مترًا طولاً . ودخلنا المدينة ورأينا عمودها المشهور وهو قطع من الرخام الابيض لهُ تاج بديع النقش عليهِ صور آلهة بارزة وبجانبهِ آثار عمود آخر كان قائمًا فحطمتهُ صروف الايام وباتت انقاضهُ تردد قول الشاعر

وكلُّ اخٍ مفارقهُ اخوهُ لعمر ابيك الاَّ الفرقدانِ

ولكن البرندزيين حرصوا على ما بقي منها ولو اثرًا باليًا فجمعوهُ بعضهُ فوق بعض . وبجانب العمود كنيسة قديمة البناء تكلل فيها فردريكوس الثاني امبراطور المانيا وملك الصقليتين على ايزابلا ابنة ملك اورشليم سنة ١٢٢٥ للمسيح . وبجانبها مدرسة كبيرة كانت ديرًا ثم حولت الى ما هو انفع من الدير وهي قديمة البناء ايضًا ويقال ان فيها مكتبة واسعة ذات كتب خط كثيرة ولم اتمكن من مشاهدتها لانها تفتح في ساعات مخصوصة

والمدينة صغيرة مثل اصغر بنادر القطر المصريه ولكن فيها مباني فخيمة بديعة الزخرفة وشارعها الكبير منار بالنور الكهربائي وفيهِ تمثال أُقيم حديثًا لرفائيل روبينين العالم الرياضي ولعلهُ نبغ فيها فأقام لهُ اهلها هذا التمثال افتخارًا بهِ واحياء لذكرهِ ومثالاً يتشبهُ بهِ ابناؤهم وتنشيطًا لهم لكي يطلبوا الشهرة من ابوابها فلا يُخسوا حقهم احياء

واموالنا . واحياء ذكر الاموات بتشييد المباني والانصاب لم يبتدعه اهل المغرب بل سبقهم اليه اهل المشرق فترى تماثيل الملوك والعظماء منتشرة في القطر المصري كلهِ ولكنها قديمة من عهد الفراعنة والبطالسة والقياصرة . اما المحدثون فخلدوا ذكر عظمائهم ببناء المساجد والزوايا والاضرحة الفخيمة وقلما خرجوا عن الآثار الدينيَّة في تخليد ذكرهم لان الذين اشتهروا بالعلم والادب كانوا غالباً من رجال الدين . ولذلك لا ترى نصباً للمتنبي وابي تمام والبحتري وابن الهيثم وابن سينا وابن رشد والفارابي ونحوهم من علماء الشرق وفضلائهِ . وهذا خلل في احوالنا الاجتماعيَّة يجب علينا اصلاحهُ لان فنون الادب والعلوم الرياضيَّة والطبيعيَّة والفلسفيَّة رقت شأن الانسان ووسعت نطاق الحضارة والعمران اكثر من سائر مبتكرات العقل . واصحابها احرى بتخليد الذكر من سواهم والاعتراف بفضلهم والحث على الاقتداء بهم

وكانت برندزي مشهورة عند الاقدمين ووصفها هوراشيوس سنة ٣٧ قبل المسيح وولد فيها الشاعر الباكوفيوس ومات فيها الشاعر فرجيليوس وكانت اساطيل الصليبيين تجتمع فيها . ثم زُلزلت زلزالاً شديداً سنة ١٤٥٨ فخربت وهلك اكثر سكانها ولا يزيد من بها الآن على سبعة عشر الفاً

وبرحنا برندزي في اليوم التالي ووصلنا الى مدينة باري وكانت تعرف باسم باريرم وهي مدينة كبيرة سكانها زهاء ٦٠ الفاً فيها كنائس كثيرة قديمة منها كنيسة القديس نيقولا وقد بنيت في القرن الحادي عشر . والمدينة قسمان قديم وهو معوجُّ الاسواق مثل اسواق سائر المدن القديمة وحديث مستقيمها واسوانهُ متقاطعة على زوايا قائمة كرقعة الشطرنج وبها حدائق غناء باسم غاريبلدي القائد الشهير وبكسيني الموسيقي الذي ولد فيها سنة ١٧٢٨ وميدان فسيح باسم الوزير كافور السياسي الكبير

ولم نقم امام باري غير خمس ساعات ثم زايلناها الساعة الخامسة بعد الظهر ووصلنا الى انكونا الساعة الثانية عشرة من اليوم التالي . وسواحل ايطاليا الشرقيَّة من برندزي الى انكونا هضاب منخفضة تقلُّ فيها الآكام العالية والقرى الكبيرة ولم نرَ فيها مزارع واسعة ولا حراجاً ملتفة وهي لا تقابل بالسواحل الغربيَّة من ايطاليا على ما قال لي الذين رأوها ويقال ان قراها قذرة واهلها فقراء لان اكثر الاراضي للاشراف وهم على حالهم في اكثر البلدان منغمسون في الملذات لاهون عن اتقان الزراعة . ولكنَّ انكونا مدينة طيبة محاطة بالبساتين والمطل عليها من البحر لايشاهد الاَّ بيوتاً قديمة مرصوصة بعضها

فوق بعض كانها تل من الانقاض ولكننا لم نسر في شوارعها طويلاً حتى رأينا يد العمران قد وسعت اسوارها وزخرفت مبانيها وفرشت شوارعها بالبلاط وانشأت فيها حديقة غناء يتضوّع عرف اشجارها فيعطّر الارجاء . وقد اعجبني حسن اتساق تلك الحديقة وطيب الاريج المتضوّع من اشجارها . وفي وسطها تمثال كبير للسياسي كافور فكأن مدائن ايطاليا تتنافس بتعظيم هذا الرجل . ولاهل انكونا عادة قديمة في تكريم العظماء فعند مدخل مدينتهم قوس نصر فخيمة البناء من الرخام الابيض أُقيمت تذكاراً للامبراطور طراجان الذي وسع ميناء المدينة . وامام كنيسة سان دومينيكو تمثال كبير للبابا اكليمنضس الثاني عشر وهو بالحلة الكهنوتيّة

وفي المدينة رابية عليها كنيسة قديمة بنيت مكان هيكل للزهرة وفي هذه الكنيسة اعمدة قديمة يقال انها من اعمدة هيكل الزهرة وقد شاهدنا في مخادعها تحفاً كثيرة ونواويس بديعة النقش والزخرفة من انواع المرمر المجزّع وبجانبها قبة شاهقة يقال انها اقدم قبة في ايطاليا . ومن المباني الفخيمة في انكونا دار التجار (البورصة) والمرسح (التياترو) والمحكمة . وواجهة دار التجار فخيمة رسمها رجل من اشهر المهندسين وفيها تماثيل كبيرة . وقد عجبتُ من ان بلداً لا يزيد سكانهُ على ثلاثين الف نفس يعتني تجارهُ بانشاء دار لا مثيل لها في القاهرة ولا في الاسكندريّة

والارتقاء الحديث بادٍ في هذه المدن الثلاث بما فيها من المباني الجديدة كأنها دخلت دوراً جديداً بعد انتظام المملكة الايطاليّة . والبلاد تسعد بانتظام الاحكام كما تشقى باختلالها . وما يقال عن هذه البلاد من انها ملاريّة فاسدة الهواء لا يظهر في هيئة السكان فان كل الذين وقع نظري عليهم اقوياء الابدان حسان المنظر وهذا لا يكون في البلاد الملاريّة ولعلها كانت كذلك ثم نزحت مياه مستنقعاتها فطاب هواؤها

وقد شاهدت بعض المواشي في برندزي وانكونا . والبقر فيها ليست جميلة المنظر كالبقر المصريّة ولكنها اسمن منها كثيراً وهي عريضة الكفل غير بارزة الأوراك ويظهر انها غزيرة اللبن . والمعزى صغيرة ولكنها حسنة نظيفة مقصوصة الشعر الى احقائها وتدل هيئتها على شدة اعتناء اصحابها بها ويكثر الكرز هنا وهو كبير طيب الطعم وعندهم صنف من الكمثرى صغير الثمر

وقد تعرفت برجل من الركاب يعرف القليل عن احوال الحكومة المصريّة ولعلهُ اقام في القطر المصري مدة قصيرة وهو يذكر الحكومة بالانتقاد ويقول انها تبذر تبذيراً

لا مثيل لهُ في ما تنفقهُ على اعمالها فاثبت له ان ما يحسبهُ تبذيرًا انما هو تدبير بالنسبة الى ما كانت تنفقهُ على هذه الاعمال عينها وعلى اقل منها منذ سنين يسيرة وان رجال الحكومة الآن من احرص الناس على اموالها ولعلهم اقرب الى الظن منهم الى التبذير وهم يقتصدون في النفقات فتتوفر الاموال في صندوق الدين وتبقى فيهِ الى ان يأتيها الف مهلك. ألا ترى انهم يتركون تحف بلادهم في بناء معرّض للنار والنهب ولا يبنون لها دارًا تليق بها وتحفظها من بوائق الايام. وهذه التحف لو كانت في احقر مدينة من مدن اوربا كانكونا التي زرناها الآن لبنت لها دارًا من الحديد والمرمر ولو استعطت المال الذي تبنيها بهِ استعطاه

وقبل ان اتم كلامي نبهنا الرفاق الى البحر واذا الاسماك تثب منهُ حتى تكاد تطير في الهواء وكأنها تنوي ثقل اجسامها فتحاول الطيران مرةً بعد اخرى الى ان يعييها الكلال فترجع تخذولة شأن من يتطاول فوق طوقهِ. ولم نرَ في البحر حيوانًا غيرها وغير كلب كبير من كلاب البحر رأيناهُ على مقربة من الاسكندريَّة واسماكًا صغيرة في المرافىء التي رسونا فيها

وكأن نبتون (رب البحر) كان في نعيمهِ فلم يثر علينا العواصف فظل البحر رهوًا يمسهُ النسيم فيتجعد ويخطُّ عليهِ سطورًا يمحو بعضها بعضًا. وظلنا على هذه الحال الى ان تجلت لنا جزائر البندقيَّة ملكة البحار فشخصت اليها الابصار وماست امامنا متائرها سكرى بغير عقار فدخلنا بوغازها ولم تتجاوزهُ السفينة من الهيبة والوقار

٣

البندقية او فينيسيا

لا تذكر البندقيَّة لدى من طالع التاريخ ولا سيما تاريخ الحروب الصليبيَّة والسلطنة العثمانيَّة الاَّ ويتخيل مملكة عزيزة الجانب كثيرة الاساطيل دامت الحرب سجالاً بينها وبين سلاطين آل عثمان اعوامًا كثيرة. وكان لها شأن كبير قبل استيلاء العثمانيين على القسطنطينيَّة قبل ان تثبت الحروب الصليبيَّة لانها بنيت في اوائل القرن الثامن بعد المسيح وكان لها اسطول كبير في اوائل القرن التاسع. ويقال انهُ دخل ثغر الاسكندريَّة سنة ٨٢٧ واخذ منها جسد مرقس البشير ونقلهُ الى البندقيَّة فصارت تحت حمايتهِ الى هذا اليوم واستولت البندقيَّة على جانب كبير من ايطاليا ودلماطيا وجميع بلاد اليونان وصارت

مركز تجارة اوربا . وبلغ عدد سكانها في القرن الخامس عشر مئتي الف نفس وكانت قيمة الصادر منها من البضائع عشرة ملايين دوكا . وكان لسكانها ثلثمئة سفينة تجارية كبيرة فيها ثمانية آلاف نوتي وثلاثة آلاف سفينة صغيرة فيها سبعة عشر الف نوتي واسطول فيه خمسة واربعون بارجة كبيرة . ولما استولى العثمانيون على القسطنطينية في اواسط ذلك القرن نشبت الحروب بينها وبينهم كما تقدم فأخذوا منها بلاد اليونان وغيرها من البلدان والجزائر بعد حروب طويلة . وكانت حكومتها مشيخية في اول امرها وبقيت كذلك الى ان فتحها نبوليون بونابرت سنة ١٧٩٧ وكان قد ضعف امرها ولم يبقَ بها من السكان سوى ٩٦ الفاً لتحول تجارة المشرق عنها ولفساد احكامها . ثم أُعطيت للنمسا ونقلت لايطاليا وأُعيدت الى النمسا وانضمت اخيراً الى مملكة ايطاليا وذلك سنة ١٨٦٦ وزاد عدد سكانها رويداً رويداً وهو الآن زهاء مئة وستين الفاً

وهي مبنيَّة على ١١٧ جزيرة بعضها مفصول عن بعض بمئة وخمسين ترعة يعبر عليها بثلثمئة وثمان وسبعين قنطرة . والأولى ان يقال ان البيوت مبنيَّة في البحر ويتصل بعضها ببعض بقناطر يمرُّ الناس عليها وتعبر الزوارق من تحتها . ومن هذه الترع ترعتان كبيرتان الواحدة ممتدة شرقاً وغرباً جنوبي المدينة وعرضها نحو ٣٠٠ متر والثانية تقطع المدينة من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي وتقسمها الى قسمين متساويين تقريباً وهي منحنية هكذا S وعرضها نحو ثمانين متراً . وعليها اضخم القصور وهي من الرخام الابيض وقد لبسها الزمان ثوب الحداد على اهلها فبدت سوداء كجناح الغراب ويمتاز بعضها عن بعض بشكل البناء وهيئة الابواب والكوى وما عليها من التناطر والاطناف وما بينها من النقوش . فبعضها مبنيٌّ على الشكل الذي كان شائعاً منذ خمس مئة سنة وبعضها منذ اربع مئة وبعضها منذ ثلثمئة وهلمَّ جرًّا . والقصور كثيرة في قلب المدينة ايضاً وفي كل انحائها حتى لتبدو مدينة القصور وهي من الرخام او من حجر ابيض صلب شبيه به وفيها كثير من الكنائس الفخيمة واشهرها كنيسة مار مرقس الآتي وصفها

وقد دخلنا هذه المدينة في يوم صفا اديمهُ واعتلَّ نسيمهُ فلم تكد السفينة ترسو بنا حتى اقبل اليها رجال الجمرك ينتحون صناديقنا ويرون ما فيها مما يمنع دخولهُ بغير رسم كالتبغ والسكر ثم ركبنا زورقاً وسرنا بهِ الى النزل الذي اخترناهُ من القاهرة ولما لم نكن قاصدين الاقامة في هذه المدينة سوى اربع وعشرين ساعة عزمنا ان نرى اشهر مشاهدها فركبنا زورقاً من زوارقها السوداء وقلنا للبحري سرْ بنا الهوينا في الترعة

الكبرى لكي نرى ما عليها من القصور . والزوارق في هذه المدينة تقوم مقام المركبات في غيرها وهي مصبوغة بالاسود الفاحم تبعاً لقانون سنَّ منذ اربع مئة عام وفيها مقاعد وثيرة محاطة بالريش الاسود وكثيرًا ما تكون المقاعد محاطة بقبة كأنها مركبة مغلقة او هودج من هوادج البدو. ورجال البندقيَّة ونساؤها المخدرات يتنزهون فيها كما يتنزه غيرهم في المركبات . فسار بنا الزورق من امام قصر الدوقات الآتي ذكرهُ ومرَّ بين قصور كثيرة منتظمة بعضها بجانب بعض تأخذ الابصار بهجتها لولا الحلل السوداء التي جلِّلتها . وقد ابدع مهندسوها في وضعها وزخرفتها واتبعوا اساليب البناء القديمة وجاد اصحابها بالمال واختاروا لها انق انواع الرخام واشهر المهندسين والنقاشين ولم يدروا انهم يبنون لغيرهم وان قصورهم التي شادوها ليتنعموا فيها تصير منازل للسياح ومخازن للبضائع

وظلَّ القارب يسير بنا الهوينا الى ان بلغنا قنطرة عظيمة من الرخام طولها ٤٨ مترًا وعرضها نحو ثلاثين وارتفاعها عن الماء عشرة امتار وهي من المباني الشهيرة في فخامتها واحكام بنائها وقد انشئت بين سنة ١٥٨٨ و١٥٩١ اي منذ اكثر من ثلثمئة عام وكانت الموصل الوحيد بين الجانب الشرقي والغربي حتى بني جسران آخران من الحديد سنة ١٨٥٤ و١٨٥٨. ولم نكد نبلغ نهاية القنطرة حتى حجبت السحب وجهَ السماء وبكت بمدمع هتان فتركنا القارب وركبنا زورقًا بخاريًّا من الزوارق التي تمخر القنطرة وتمرُّ بكل محطة من محطاتها كل اثنتي عشرة دقيقة وعدنا الى النزل الى ان تقشعت غمامة الصيف فذهبنا الى كنيسة مار مرقس العجوبة البندقيَّة وفخر اهلها . وقد بنيت هذه الكنيسة في القرن التاسع واحرقت في القرن العاشر ثم جُدِّد بناؤها وجعلت في الشكل البزنطي وبذل الجهد في زخرفتها. وهي ليست من الكنائس المشهورة باتساعها لان طولها نحو ٧٧ مترًا فقط وعرضها عند واجهتها ٥١ مترًا و٨٠ سنتيمترًا وفي وسطها ٦٢ مترًا و٦٠ سنتيمترًا ولكنها مشهورة بكثرة اعمدتها وتنوع رخامها وكثرة الصور والنقوش الفسيفسيَّة التي فيها. فان فيها خمس مئة عمود من المرمر المختلف الالوان بين ابيض وازرق واخضر وبرتقالي وبنفسجي . وظاهر جدرانها كلهُ من الرخام واكثرهُ بديع تجزَّع واشهر ما فيها صور الفسيفساء فانها لو بُسطت لغطت ارضًا مساحتها ٤٥٧٩٠ قدمًا مربعةً وبعضها قديم جدًّا صُنع منذ اكثر من تسع مئة سنة لكن اكثرها صُنع بين القرن الثاني عشر والسادس عشر

ولكي يتجلى للقارىء ما هو المراد من صور الفسيفساء اقول انك ترى على جدار صورة كبيرة تمثل رجالاً واشجارًا وازهارًا وخيلاً ومركبات في اوضاع مختلفة فلا

تشك في انها مصنوعة بقلم امهر المصورين لبهاء الوانها ومماثلتها للطبيعة . ثم اذا دققت النظر فيها رأيتها مركبة من حجارة صغيرة او قطع من الزجاج الملوّن منظومة بعضها بجانب بعض حتى تظهر تلك الصور من مجموعها . والوانها ثابتة لا تتغير على مرّ الاعوام ولذلك بقيت هذه الصور على بهائها معا مرّ عليها من السنين

وفوق باب الكنيسة الكبيرة اربعة احصنة من النحاس المذهّب من ابدع ما صنعهُ الاقدمون وقد كانت منصوبة فوق قنطرة نيرون او طراجان رومية فنقلها الملك قسطنطين الى القسطنطينيّة ثم اتى بها الدوق داندولو الى البندقيّة لما فتح القسطنطينيّة سنة ١٢٠٤ فبقيت فيها الى ان استولى عليها بونابرت سنة ١٧٩٧ فنقل الاحصنة الى باريس ثم أُعيدت الى البندقيّة سنة ١٨١٥ كما أُعيدت بقيّة التحف الى اماكنها

وفوق هذا الباب صورة يوم الدينونة وهي حديثة والى اليمين صورة المجيء بجسد مار مرقس من الاسكندريّة وصورة وصوله الى البندقيّة وكلتاهما صُنعت سنة ١٦٦٠ والى اليسار صورة تكريم ذلك القديس وصورة الكنيسة نفسها وكلها من الفسيفساء وفي الكنيسة مئات من الصور والتماثيل وكلها من أبدع ما صنعهُ المصورون والنقاشون . وفيها من التحف والآنية الذهبيّة والفضيّة المرصعة بالحجارة الكريمة ما يعجز القلم عن وصفهِ . وقد مضى على هذه الكنيسة الف عام واهالي البندقيّة ينفقون على تزيينها من سعتهم وصناعها يظهرون فيها اقصى براعتهم فلا عجب اذا جمعت اثمن الذخائر وابدع التحف

وبجانب الكنيسة من جهة الجنوب عمودان مربعان من الرخام الابيض أُتي بهما من كنيسة مار سابا في عكاء سنة ١٢٥٦ عند ما احرق اهل البندقيّة تلك الكنيسة ويظهر لي انهما كانا مصراعي باب

وامام الكنيسة من الجهة الغربيّة ساحة رحبة طولها نحو ١٨٠ مترًا وعرضها من الجهة الواحدة ٥٧ مترًا ومن الاخرى ٨٢ مترًا وهي محاطة بقصور فخيمة من الرخام . في واجهاتها مما يلي الساحة ثلاثة صفوف من الاروقة الواحد فوق الآخر وكلها من الرخام المزخرف التيجان . وهذه الساحة قلب المدينة ومجتمع اهاليها فتراهم في الليلة القمراء يتهادون فيها زرافات رجالاً ونساء بأبهى الحلى والحلل لا يخافون ظلمًا ولا عثيرًا ولا مركبات تصطدم بهم لان الارض مرصوفة كلها بالبلاط المستوي وليس في المدينة مركبة ولا فرس ولا بهيم آخر . ويرى فيها نهارًا اعمالاً من الحمام الاهلي تجتمع حول من يطرح لها طعامًا وكثيرًا ما رأيناها حائمة حول اولادنا وواقفة على أيديهم ورؤوسهم كأنها

زُيت معهم واهل البندقيَّة يحمونها ولا يسمحون بصيدها

وكل من وقف في هذه الساحة ورأى ما حولها من القصور الفخيمة تجلت لهُ عظمة المدينة في ايام تجدها واستيلائها على متاجر المسكونة

وفي طرف الساحة على يمين الداخل الى الكنيسة برج عظيم

رسا اصلهُ تحت الثرى وسما بهِ الى النجم فرع لا يُنال طويلُ

وقد بني سنة ٨٨٨ للمسيح وجدد بناؤهُ سنة ١٣٢٩ وعلى رأسهِ تمثال ملاكٍ مذهب ارتفاعهُ ١٦ قدماً لكنهُ يظهر عن الارض كأنهُ طفل صغير . وارتفاع البرج كلهِ ٣٢٣ قدماً او ٩٨ متراً و٦٠ سنتيمتراً

وجنوبي الكنيسة قصر الدوقات حكام البندقيَّة ورؤساء مشيختها . والناظر الى هذا القصر من الجنوب والغرب يرى صفين من الاروقة الواحد فوق الآخر وعلى كل قنطرة من الرواق الاسفل قنطرتان من الرواق الاعلى وفوق الرواقين بناء فخيم واسع الكوى مزخرف الحجارة واعمدة الرواقين وقواعدها وتيجانها والكوى التي فوقها والاطناف والشرفات كل ذلك من الرخام الابيض ما عدا عمودين من الرخام البرنقالي . وفي تيجان هذه الاعمدة من النقش والزخرفة ما يعجز القلم عن وصفهِ وهي مصنوعة يد أمهر النقاشين . وداخل القصر دار فسيحة ذات اروقة وابراج وتماثيل . ويرتقى الى القصر بسلَّم يقال لها سلم الجبارين لان على رأسها تمثالين كبيرين الواحد للريخ والآخر لنبتون وقد صُنعا سنة ١٥٥٤

اما مفاصير هذا القصر وما فيها من الصور والتحف فما لا يستوفى وصفهُ الاَّ في مجلد كبير لان اعظم مصوري البندقيَّة ونقاشيها افرغوا جهد صناعتهم وغاية ما وصل اليهِ حذقهم في نقشها فزينوها بالصور التاريخيَّة والخياليَّة والنقوش والتماثيل . ومن هذه المفاصير مقصورة طولها ١٧٤ قدماً انكليزيَّة وعرضها ٨٤ قدماً وارتفاعها ٤٧ قدماً وهي بناء واحد لا عمود فيهِ ولا دعامة فهي اكبر مقصورة في اوربا . وفي سقفها صور حروب البندقيَّة وتحتها صور الدوقات الستة و السبعين الذين حكموها وعلى جدرانها ٢١ صورة تاريخيَّة كبيرة تمثل اشهر الحوادث في تاريخ البندقيَّة وعلى الجدار الشرقي صورة انجاد الفردوس وهي اكبر صورة من صور الزيت في المسكونة فان طولها ٨٤ قدماً وعرضها ٣٠ قدماً وقد صورها المصور تنتورتو منذ ثلثمئة سنة . وهي اثمن ما في البندقيَّة ويتضح للقارىء ذلك من ان الصورة من صور هؤلاء المصورين العظام التي لا تزيد مساحتها

على قدم مربعة تباع الآن من الف جنيه الى ثلاثة آلاف جنيه او اربعة فما فوق في صورة لا تقلّ مساحتها عن الفين وخمس مئة وعشرين قدماً مربعةً وهي من ابدع الصور واكثرها اتقاناً كما انها من اقدمها عهداً ولا يبعد انهُ لو قدّر ثمنها الآن لبلغ خمسة ملايين او اكثر من الجنيهات وقس على ذلك بقيّة الصور التي في هذه المقصورة العظيمة بل في كل مناصير القصر

وقد وقفتُ في هذه المقصورة ساعةً من الزمان حائرًا مدهوشًا ولا ادري مما دهشتي أمن اتساعيا الفائق أم من كثرة صورها ام من بديع ألوانها وإحكام رسمها ام من صورة الفردوس التي فيها . ولقد وددتُ لو ان الساعة صارت شهرًا وعيني صارت منظارًا حتى انعم نظري في كل صورة ومشهد واستخلص تاريخ هذه المدينة العظيمة من صور قصرها . ولا عجب من استغرابنا كل ما نشاهدهُ في مدائن اوربا لانهُ مضى على الشرق الف وخمسمئة سنة وهو يتأخر والغرب يتقدم فعظم البعد بيننا . ولو بقي الشرق سائرًا كما كان منذ اثني عشرة سنة لوجدنا مشاهد اوربا مألوفة عندنا ولم نعجب لها ولم ندهش

وسار بنا الدليل بعد مشاهدة مقاصير القصر الى السجون التي كانوا يسجنون فيها الاسرى والمأخوذين بالجرائم السياسية والمكان الذي كانوا يذبحون فيهِ والمصفاة التي كانت دماؤهم تصفى بها فان أولئك الامراء الذين اشتهروا بتوسيع نطاق التجارة والحضارة وبذلوا من العناية في تزيين هذا القصر ما يدل على سلامة ذوقهم كان بعضهم عتاةً طغاةً تحملهم المطامع على سفك الدماء والفتك بالابرياء . وكل نعيم البندقية لا يساوي ليلة في تلك السجون المظلمة والسيف والنطع على ابوابها حيث لا منقذ ولا شفيع . ولم تبطل تلك المظالم الاَّ على يد بونابرت الفاتح الذي غسل الدم بالدم ومحا مظالم الاعصار الوسطى

ثم دخلنا مكتبة القصر ويقال ان فيها مئتين وخمسين الف مجلد وعشرة آلاف مجلد من كتب الخط وطلبتُ ان ارى كتب الخط العربية لعلي اقف على بعض الكتب النادرة مما نهبهُ اهل البندقية في غزواتهم الكثيرة فذهب الكتبي ليأتيني بها وركب طريق القارطين ولما مللتُ الانتظار خرجتُ آسفًا أتمنى ان تمكنني الفرصة من العودة اليها

وامام هذا القصر قصر بديع كان مكتبة وهو الآن القصر الملكي وكان الشروع في

بنائهِ سنة ١٥٣٦ وهو من اجمل قصور ايطاليا ولا يستطيع الناظر اليهِ الاَّ ان يقف مدهوشاً مسروراً كأنهُ ينظر الى غادة حسناء أُفرغ عليها الجمال والبهاء . وبين القصرين ساحة فسيحة فيها عمودان من المرمر أُقيما بها سنة ١١٨٠ ويقال انهُ أُتي بهما من سوريَّة او من القسطنطينية وهما مثل الاعمدة التي في مدينة بيروت عند الجامع الجديد وعلى احدهما تمثال اسد مجنح وعلى الثاني تمثال القديس ثيودورس واقفاً على تمساح

وقد شاهدنا معامل الزجاج والفسيفساء . ولاهل البندقية مهارة غريبة في تلوين الزجاج والرسم عليهِ ومصنوعاتهم تدهش الابصار في تزويقها وباهر ألوانها . والزجاج في يدهم اطوع من ادهان الزيت في يد المصور الماهر فيصورون بهِ ما يشاؤون وانت واقف امامهم لا ترى الالوان والزجاج ذائب ولكنهُ اذا برد ظهرت بكل بهائها

وقد اعجبني انتفاء الخيل والمركبات من هذه المدينة فلا يقلق الانسان بطقطقتها ولا تتظلم الشوارع من وقع حوافرها وسير عجلها . والظاهر ان اهل البندقية آخذون في طمر الترع الضيقة التي بين البيوت لانهُ قد مضى الزمان الذي كانوا يربحون فيهِ الاموال الطائلة من متاجرهم الواسعة وسفنهم الكثيرة وصاروا يضطرون ان يسعوا على اقدامهم في طلب رزقهم ولم تعد الزوارق تفي بحاجتهم . وقد ودعت هذه المدينة الزاهرة ولسان حالي يقول

مليكة البحر مجموع الاعاجيبِ فقتِ المدائنَ حسناً غير مجلوبِ
قامت قصورك فوق الماء مسفرةً كواعبَ اغتسلت بالماء والطيبِ
ان كان يوسف اعطاكِ محاسنهُ فان وصفكِ تعجيزٌ ليعقوبِ

٤

مدينة ميلان وكنيستها

غادرنا البندقية في الثاني والعشرين من شهر يونيو بُعيد الظهر وركبنا القطار وتوجهنا ميلان فانساب بنا في سهل فسيح كستهُ يد الربيع مطارف السندس واتسقت فيهِ الاشجار طرائق واستمسكت بها الكروم كالعشاق وانتظمت بينها كالقلائد في الاعناق . وعلى جانبي السهل جبال وآكام تدنو منهُ تارةً وتقصو أُخرى وكلها مكسوٌّ بالحراج وجدَّ القطار بنا السير فقطع مئةً وخمسة وستين ميلاً في نحو خمس ساعات ومررنا على مدن كثيرة كبادوا وفيشنزا وفرونا وكلها من المدن القديمة التي بسمَ لها الدهر وعبس وتقلَّبت عليها صروف الزمان ولم يمرَّ بها جيلٌ الاَّ أبقى فيها من آثارهِ

كثيرًا من كنائس ومدارس وقصور وحصون وصور وتماثيل . ومررنا على بحيرة غردا فرأيناها متوسدة بين الجبال الخضرة وقد صبغت بالحمرة

كأن موسى كليمَ الله أنبسها نارًا وجرَّ عليها ذيلهُ الخفرُ

وما زلنا نجدُّ السير حتى دنونا من مدينة ميلان عاصمة بلاد لمبرديا فزادت الحراجُ كثافةً واشجارها غضاضةً حتى كادت تحجبُ عنا وجه السماء . وفيما نحن نرقب خضرة المزارع ونعجب من حرص الاهلين على استثمار التراب والماء والهواء دخل القطار المحطة فرأينا مركبة النزل الذي كنا نقصدهُ في انتظارنا فركبناها وسارت بنا في شوارع فسيحة مرصوفة بالبلاط والحصى الى ان وصلنا النزل وهو على مقربة من كنيسة ميلان الشهيرة وكواهُ تطل عليها

وخرجنا في المساء وشاهدنا رواق الملك فكتور عمانوئيل وهو لا شبيه لهُ في الاتساع والجمال غير رواق نابولي الجديد على ما قيل فطفتُ فيهِ مثنى وثلاث وانا اردد قول الشاعر

قل لمن لا يرى الاواخر شيئًا ويرى للاوائل التقديما
ان ذاك القديم كان حديثًا وسيبقى هذا الحديث قديما

وقد بني هذا الرواق منذ اربع وعشرين سنة وبانيهِ من اعظم مهندسي ايطاليا وقد افرغ فيهِ جهد صناعتهِ بل افرغ فيهِ حياتهُ لانهُ سقط من اعلى بابهِ فقضى عليهِ . وبلغت نفقتهُ ثمانية ملايين من الفرنكات وطولهُ ٩٦٠ قدمًا انكليزيَّة وعرضهُ ٤٨ قدمًا وعلوهُ ٩٤ قدمًا وهو في شكل صليب في وسطهِ قبة مثمنة الجوانب ارتفاعها ١٨٠ قدمًا . وفيهِ تماثيل كثيرة بعضها يمثل قارَّات الارض الاربع اسيا واوربا وافريقية واميركا وبعضها يمثل العلم والصناعة والزراعة والفنون . وفيهِ تماثيل اربعة وعشرين من مشاهير ايطاليا مثل كافور ورفائيل وغاليليو ودنتي وميخائيل انجلو وڤلطا وكولمبس ومكيافلي وهم الذين يبقى اسمهم خالدًا ولو زال اسم الملوك واهل الجاه والثروة لان الامة تقدّر رجالها بما تستفيدهُ منهم لا بما يستفيدونهُ منها ولذلك تخصُّ بالاكرام رجال العلم والصناعة والسياسة الذين جنت النفع منهم وكانوا دعائم في عمرانها

واعمدة هذا الرواق من المرمر وهو منار بالنور الكهربائي وفي صدرهِ مما يلي ساحة الكنيسة الكبرى حوانيت كبيرة منارة بالنور الكهربائي ايضًا وبناؤها وبناء المنازل التي فوقها من اجمل ما رأيتهُ حتى الآن

وقمتُ في اليوم التالي لمشاهدة كنيسة ميلان المشهورة بانها من عجائب الدنيا

فطفتُ حولها وصعدت فيها الى اعلى برج من ابراجها وتفحصت ما امكنتا الوصول اليهِ من تماثيلها ونقوشها وصورها وزخارفها وعدتُ اليها مرارًا اقلب الطرف فيها فلا ارى الأمحاسن جديدة تتجلى امام عينيَّ ثم أُجيل فكري في ما اخبرني عنها الدليل وعلقتهُ في مذكرتي فازيد دهشةً وحيرةً

وقد وُضع اساس هذه الكنيسة سنة ١٣٨٦ اي منذ اكثر من خمس مئة سنة ومؤسسها يوحنا غاليازو احد امراء ميلان ومن ثمَّ الى الآن والحكومة والامة والصناع يبذلون جهد المستطيع في بنائها وتزيينها وقد اتموا البناء ولكنهم لم يتموا التماثيل وسيمضي القرن التاسع عشر وربما مضى القرن العشرون ايضًا قبل ان يقول الصناع كفى لانهم عازمون ان يغيروا ابوابها الخمسة التي في واجهتها والكوى التي فوقها ويجعلوها بحسب الشكل القوطي مثل بقيَّة الكنيسة وان يبدلوا الجانب البسيط من سطحها بما هو اكثر منهُ زخرفةً وان يكملوا التماثيل في ابراجها ولم يكمل منها حتى الآن سوى تماثيل برجين

والكنيسة في شكل صليب روماني طولها من الباب الى المحراب الاوسط ٤٨٦ قدمًا وعرضها من طرف الى طرف ٣٥١ قدمًا وارتفاعها الى حد سقفها ١٦٤ قدمًا وارتفاعها الى رأس التمثال الذي على رأس اعلى ابراجها ٣٦٠ قدمًا وفيها خمسة اروقة قائمة على ٥٢ عمودًا مضلعًا ارتفاع كلٍّ منها مع قاعدتهِ وتاجهِ ٧٢ قدمًا وقطرهُ ثماني اقدام وثخن جدرانها ثماني اقدام ايضًا وكلها من الرخام الابيض ولا حجر فيها غير الرخام وفيها ٣٤٠٠ تمثال وستة آلاف صورة بارزة غير التماثيل وصور اربعة آلاف نوع من الازهار وكلها من الرخام ايضًا . ويقال انها تسع اربعين الف نفس . وقد بلغت نفقاتها الى الآن خمسمئة وخمسين مليونًا من الفرنكات . ولو قدرت قيمة تماثيلها بالنسبة الى ما مرَّ عليها من السنين والى انها من عمل أشهر النقاشين لبلغت ملايين لا تحصى

ولا أطمع ان آتي على وصف كل ما فيها في هذه العجالة لان بعض الكتاب قد انفوا كتبًا كبيرة في وصفها على ما بلغني ولكني اكتفي بذكر ما رسخ في ذهني حين رؤيتها وامعان النظر فيها فأقول

لما التفتُّ الى الكنيسة من الخارج رأيت ابراجًا متناسقة متقاربة كانها شجر الغاب وهي تزداد دقة بارتفاعها الى ان ينتهي كلٌّ منها بتمثال انسان وبينها برج أعلى منها واثخن حولهُ ابراج اخرى اصغر منهُ وهو ينتصب اولاً محاطًا باضلاع متوازية ثم تنشأ منهُ اطناف وشرفات ويعلو فوقها مستدقًا الى ان ينتهي بتاج عليهِ تمثال العذراء المباركة

وهو كبير مذهب . والابراج كلها محاطة بكثير من التماثيل من اسفلها الى اعلاها وكل تمثال منها ينتصب في كوة كثيرة النقش او على طنف بارز وفوق رأس كل قبة صغيرة بارزة من البرج كأنها تاج يظلل رأسهُ . والجدران التي بين الابراج كثيرة الكوى وبعض هذه الكوى اكبر ما صنعهُ الناس حتى الآن . وكلها محاط بالتماثيل والنقوش وزجاجيا قطع صغيرة ملوّنة يظهر من تجموعها صور بديعة الاشكال والالوان . وفي اطراف الجدران بين الابراج افاريز وشرفات تخرّمة تخريمًا وفيها من القناطر والنقوش ما يدهش الابصار . وكل ذلك بالشكل القوطي الاَّ الواجهة فان ابوابها الخمسة السفلى والكوى الخمس التي فوقها رومانيَّة الشكل وستغير كلها كما تقدم فتصير قوطيَّة مثل سائر الكنيسة

ولما دخلتُ الكنيسة زدتُ دهشةً بما فيها من التماثيل والمحاريب والاعمدة ولاسيما العمودين الكبيرين على جانبي بابها الكبير فان طول كلٍّ منهما ٤٢ قدمًا وهو قطعة واحدة . واما الاعمدة المضلعة القائم عليها سقف الكنيسة وقبتها فمن قطع كثيرة ولكنَّ تيجانها تدهش الابصار بكثرة تماثيلها . وفي المحاريب والاضرحة من الاعمدة والصور والتماثيل والنقوش والمنابر والآنية الذهبيَّة والفضيَّة ما يكلُّ عن وصفهِ القلم . وغاية ما رسخ في ذهني من ذلك ان الاساقفة والملوك والامراء والاغنياء والصناع في ميلان وفي غيرها من مدائن اوربا اجمعوا على تزيين هذه الكنيسة بابدع التحف واثمنها حتى نبوليون بونابرت كان لهُ اليد الطولى في اتمام بنائها وتزيينها وتجد تمثالهُ على برج من ابراجها بين تماثيل غيرهِ من رجال الدين والعلم والفضل . وقد استغربت ذلك من بونابرت من حيث كونهُ رجلاً حربيًّا لكني لم استغربهُ منهُ من حيث كونهُ رجلاً سياسيًّا لان رجال السياسة يجرون غالبًا على القاعدة المشهورة وهي ان الغاية تبرّر الواسطة

ولما صعدت الى اعلى الكنيسة وقفت اولاً في موقف ارى منهُ سقفها وابراجها تتدرج في الارتفاع والزخرفة . حتى اذا بلغتُ الدرجة ٣٨٢ رأيت تفضي في روض اشجارهُ الابراج وازهارهُ واثمارهُ من الرخام وبعضهُ نقيٌّ حتى يكادُ يشف عمَّا وراءهُ . وتماثيل المشاهير رجالاً ونساء قائمة في هذا الروض في كل جانب منهُ وحول كل برج من ابراجهِ ثم التفتُّ الى ما حولي فرأيتُ مدينة ميلان وسطوح منازلها وفي قطع حمراء متلاصقة بينها بعض المباني الشاهقة كقبب الكنائس وابراجها وقبة رواق فكتور عمانوئيل وقنطرة النصر وما اشبه وحول المدينة رياض خضراء محاطة بالجبال الشاهقة

تدل على غنى البلاد ومناعتها وفيما انا اكتب هذه السطور ارتسمت صورة الكنيسة امام عيني وحبت اليّ القريض فقلت فيها

هذي عروس المباني في مطارفها ... تيه عجبًا بما فيها من الطرفِ
ابى بنو الدهر الاَّ ان تكون لهم ... ذخرًا فجادوا لها بالمال والتحفِ
وجاء صنّاعهم حدّ الغرابة في ... نحت التماثيل والاَّطناف والشرفِ
مضت دهورٌ ولم ياخذهنَّ ملالٌ ... وكلهم سائرٌ في خطة السلفِ
ولن ترى عملاً تقضي السنون بهِ ... الاَّ اذا جاءهُ الانسان عن شغفِ

باب الصحة والعلاج

تجارب بتتكوفر في انتقال الهواء الاصفر

ان الاستاذ بتتكوفر طبيب مونيخ الصحي الشهير رفع في ١٢ نوفمبر سنة ١٨٩٢ الى الجمعيّة الطبيّة في هذه المدينة بلاغًا كان لهُ وقع عظيم ونشرتهُ اكثر الجرائد الطبيّة . ومضمون هذا البلاغ تجارب جرّبها كلٌّ من الاستاذ بتتكوفر والاستاذ امريخ في نفسهِ لمعرفة ما لباشلوس الهواء الاصفر من القوة السامة الخاصة معرفةً اكيدة. فلما تنشى الهواء الاصفر في همبورغ كتبا الى الدكتور غافتي فارسل اليهما سوائل صادرة من مصابين بالهواء الاصفر فاستنبتاها حسب الطريقة المعروفة. وفي السابع من شهر اكتوبر شرب الاستاذ بتتكوفر امام شهود سنتيمترًا مكعبًا من المستنبت مع غرام من ثاني كربونات الصودا مذابًا في مائة غرام من الماء . والغرض من اضافة كربونات الصودا اليهِ ازالة فعل الحامض المعدي لان الحوامض تقتل المكروبات كما لا يخفى فلا تتكاثر فيها . ولم يغير شيئًا من معيشتهِ فلم يعرض لهُ سوى اسهال حصل بعد ثمان واربعين ساعة من شرب المستنبت وبقي معهُ اربعة ايام وزال بلا ضرر آخر . وفحص امّريخ وبفيفر برازهُ فوجدا فيهِ كثيرًا من الباشلس الضمي

وفعل الاستاذ امّريخ كذلك فتناول في ١٧ اكتوبر عشرة سنتيمترات من مستنبت باشلس الهواء الاصفر النامي جيدًا مما عمرهُ ٢٤ ساعة في مائة غرام من ماء قلويّ . ولم